بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــــدمة

الفكر الإنسانى سلسلة متصلة الحلقات ، يتصل فيها الماضى بالحاضر ، ويتأثر فيها اللاحق بالسابق ، وقد يكون التأثر بالإيجاب ، أى يردد اللاحق أفكار السابق عليه ، وقد يكون التأثر بالسلب ، فيقف اللاحق موقف الناقد والمعارض لأفكار السابق ، وهذا يعنى ديناميكية الفكر الإنسانى واتصاله وتأثره سواء بالإيجاب أو بالسلب ، ويعنى أيضا أنه ليس هناك فكر مبتور الصلة بمن سبق ولا يؤثر فيمن بعده .

وفى هذه الدراسة سوف نعرض لإحدى حقبات الفكر الإنسانى ، وهو الفكر الشرقى القديم ، ولهذا الفكر أسبقيته على الفكر الغربى فى محاولة فهم معنى الحياة والغرض منها[1] .

وسوف نقصر بحثنا على الجانب الدينى فى ذلك الفكر لأنه يمثل أهم جوانبه ، بل لا يمكننا معرفة جوانب هذا الفكر المختلفة بمنأى عن الجانب الدينى فيه ، فلقد فسر الشرقى القديم الكون والحياة والقيم على أساس دينى « ففكرة بدء الخلق فى الشرق تستمد عناصرها من الدين أكثر مما تستمدها من الفلسفة ، وإن شئت فقل ، إن الدين والفلسفة شىء واحد ولهذا لم يعرف التاريخ نظرية فلسفية فى الشرق القديم مستقلة عن الدين »[2] .

ولقد وجد هذا الفكر بصورة ما فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وعرفه المسلمون بعد ذلك بالاتصال المباشر بينهم وبين أهله ، ونفذت بعض أفكاره إلى بعض الفرق المنتسبة للإسلام .

---

(١) توملين : فلاسفة الشرق ص ١٧ - ١٨ .

(٢) د. محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ص ١١ ، ١٢ .

ويعد ذلك الفكر من أهم عوامل قيام علم الكلام ، ذلك العلم الذى قام أساسا للدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد هذا لفكر ، وكانت له هذه المهمة الدفاعية بجانب قيامه بمهمة توضيح العقيدة الإسلامية وإثباتها بالأدلة العقلية .

ولقد جاءت هذه الدراسة تحاول أن تلقى بعض الأضواء على الملامح الرئيسية للفكر الدينى الشرقى القديم ، ممثلة فى عرض آراء بعض الفرق الرئيسية ، وتبين صلة ذلك الفكر بالفكر الإسلامى ، ممثلة فى بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام والتى رددت بعض أفكاره ، ثم موقف المتكلمين من ذلك الفكر وردهم عليه ، وذلك بإعطاء نماذج من تلك الردود .

ولقد انقسمت هذه الدراسة بحسب أغراضها إلى ثلاثة أقسام هى :

● **القسم الأول** : عرضنا فيه لآراء بعض الفرق الشرقية القديمة ، وذكرنا عقائدها الدينية ، وتصورها لنشأة العالم وللألوهية وموقفها من النبوة ، ومسائل تتصل بالآخرة - ولقد اعتمدنا فى ذكر هذه الآراء على ما كتبه المتكلمون عن هذه الفرق - حيث إن ذلك كان مصدرنا الوحيد عنهم ، لصعوبة الرجوع إلى الأصول الأساسية لهذه الديانات القديمة ، وقد ترجع الصعوبة إلى قدم تلك الأصول ذاتها ، والتى قد طوى الزمن معظمها ، وإلى اللغة القديمة التى اندثرت وكتبت بها هذه الأصول ، وإلى أن أصحاب تلك الديانات المعاصرون يجعلون تلك الأصول سرا من أدق الأسرار لا يطلع عليه إلا أبناء الدين ، ولقد ذكر تلك الصعوبة صاحب كتاب «مندالى أو الصابئة الأقدمين » وذكر كيف عانى كثيرا فى إقناع شيخ طائفة الصابئة فى العراق ليترجم له بعض فقرات من الكتب المقدسة لديهم .

وعلى كل فلنا أن نثق برواية المتكلمين عنهم ، وذلك لأنهم التقوا لقاء مباشرا بأصحاب تلك الديانات القديمة وعاشوا بين ظهرانيهم ، وقامت بينهم مجادلات ومناقشات ، وكل فريق يحاول أن يعزز رأيه ويثبت صحة أدلته ، وهذا يدل على أن تلك الآراء كانت مشهورة وزواعة فى عصر المتكلمين .

● **القسم الثانى** : تناول الصلة بين ذلك الفكر الشرقى القديم وبين الفكر الإسلامى، ولقد أرجعنا تلك الصلة إلى ما قبل الإسلام ، حيث عرف العرب تلك الديانات بل ودان بعضهم بها ، ثم بعد قيام الإسلام رددت بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام بعض الأفكار الشرقية القديمة ، وهؤلاء كانت تحركهم دوافع سياسية . أرادوا

أن يعيدوا مجد أسلافهم الغابر ، فأحيوا عقائد الأسلاف ، وتستروا بالإسلام ، محاولين تقويضه من الداخل بإفساد عقائده ومزجها بتلك الأفكار ، وأولئك لم يخلص إسلامهم ، ومنهم من جاهر بتلك الدعوات الخارجة على الإسلام ، ومنهم من أضمرها فى نفسه وأظهر الإسلام ، ولقد حاولنا عرض نماذج من هؤلاء الداعين للإسلام والخارجين عنه وفصلنا القول إلى حد ما فى عرض الحركات الباطنية السرية، التى لا زال لها أتباع فى عالمنا اليوم تحت أسماء مختلفة ، وكلها ترجع إلى أصول واحدة مشتركة ، يجمعها الخروج عن العقيدة الإسلامية الواضحة .

ويمثل هذا الأثر الإيجابى ، أى ترديد هذه الفرق لبعض الأفكار الشرقية القديمة بصورة غير مباشرة ، وهذا الأثر يعد ضعيفا ومنحصرا فى فرق المغالين ولقد اندثرت بعض هذه الفرق ولايزال بعضها إلى اليوم تحت أسماء مختلفة .

● **القسم الثالث** : يتناول هذا القسم الجانب النقدى للفكر الدينى الشرقى القديم ، متمثلا فى موقف المتكلمين من ذلك الفكر ، سواء من أهله أو من أولئك المنتسبين إلى الإسلام شكلا ، والخارجين عنه حقيقة .

ولقد كان المتكلمون أكثر قدرة من غيرهم فى مواجهة ذلك الفكر ، وجعلوا مهمتهم معارضة ذلك الفكر ، ولقد أعدوا لها إعدادا حسنا ، فتسلحوا بسلاح العقل واستفادوا من الفلسفات السابقة عليهم ، وابتكروا طرقا فى الجدل ورد حجج الخصم، ودارت بينهم مناقشات ومجادلات حول موضوعات الخلاف بينهم ، ولقد حصرنا أوجه الخلاف فيما يلى :

(**الأول**) رد المتكلمين على القائلين بقدم العالم وإنكار وجود الله تعالى .

(**الثانى**) رد المتكلمين على المنكرين لوحدانية الله تعالى ، والقائلين بالتجسيم والتشبيه .

(**الثالث**) رد المتكلمين على المنكرين للنبوة .

(**الرابع**) رد المتكلمين على المنكرين للمعاد والقائلين بالتناسخ .

ولقد واجهتنا فى ذلك صعوبتان ، الأولى هى تعدد الموضوعات التى دار حولها النقاش ، وكذلك التفريعات والتفصيلات التى تندرج تحت تلك الموضوعات ، ولا نكون مغالين لو قلنا إن كل واحد من تلك الموضوعات يحتاج إلى كتاب مستقل ، لذا

كان علينا أن نقتصر على الموضوعات الرئيسية ، ونوجز القول فيما يندرج تحتها من تفصيلات ، فنعطى نماذج كمجرد أمثلة لردود المتكلمين حيث إن الإتيان بكل الردود أمر عسير المنال ويخرج عن حدود الطاقة ، فضلا عن أنه يغرق القارىء فى تفصيلات يضيع معها جوهر الموضوع ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك الصعوبة الثانية ، وهى تعدد الفرق الكلامية وتعدد مذاهبها مما أدى إلى تعدد ردودها وكثرتها ، وإزاء هذه لصعوبة آثرنا أن نقتصر على ردود المدارس الكلامية الرئيسية ، وهى المعتزلة والأشاعرة والماتريدية ، ولقد فصلنا القول فى المعتزلة والأشاعرة أما بازاء الماتريدية فلقد اكتفينا فى معظم الأحيان بمجرد الإشارة إليها ، وذلك لأنه سبق لنا دراستها بالتفصيل ، ولقد اهتممنا بإيراد ردود أقطاب هذه المدارس خاصة الأوائل منهم ، لأنهم هم الذين سبقوا إلى معارضة ذلك الفكر ، وجرت بينهم وبين أصحابه مجادلات ومناقشات .

ولقد كنا نذكر رأى المتكلمين جملة فيما اتفقوا فيه من ردود ، أما فى بعض المسائل التى اختلفوا فيها كنا نذكر رأى كل مدرسة على حدة ، على أننا يجب أن نذكر أن ذلك الاختلاف لم يمس جوهر موقف المتكلمين من معارضة ذلك الفكر ، لكنه يعنى أن لكل مدرسة كانت لها طريقتها فى الرد الذى يرتكز أساسا على مذهبها الكلامى العام .

ولقد اكتفينا بإعطاء نماذج لردود المتكلمين وذلك بسبب هاتين الصعوبتين ، ولأن الغرض هو إيراد الدلالة على معارضة المتكلمين لهذا الفكر والرد على أدلتهم جملة لا تفصيلا .

ولقد حاولنا أن نعقب على ردود المتكلمين وأن نظهر بإيجاز جوهر الخلاف بينهم وبين أصحاب الفكر الدينى الشرقى القديم ، وحاولنا أحيانا نقد تلك الردود بالقدر الذى يسمح به المجال .

وهذه الدراسة تختص بنقد المتكلمين لأدلة خصومهم أصحاب الفكر الشرقى القديم ، لذا اقتصرنا على ذلك الجانب النقدى ، ولم نتعرض لجانب الإثبات عند المتكلمين ، فمثلا عندما يكون الحديث عن النبوة ، فإننا نذكر موقف المتكلمين من المنكرين للنبوة ، ونقدهم لأدلة المنكرين ، دون أن نذكر أدلة المتكلمين المثبتة للنبوة والحاجة إليها ، وإن كانت ردودهم تعنى لإثبات بمعنى من المعانى ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، كنا نحاول أن نحصر أوجه الخلاف بين المتكلمين وبين أصحاب

الديانات الشرقية القديمة ، لأن بعض مسائل الخلاف قد اتسع مداها وشمل الخلاف بين المتكلمين والفلاسفة ، حيث إن بعض المشكلات كانت مثار جدال ونقاش بينهما خاصة عند المتأخرين من المتكلمين ،وحيث مزج علم الكلام بالفلسفة فكنا نحاول أن نقصر البحث فى الخلاف بين المتكلمين وبين أصحاب الفكر الشرقى القديم ، ولا يعنى ذلك عدم استفادة الفريقين بالفلسفة ، بل لقد كانت أدلة الخصوم ، ونقد المتكلمين لها لا تخلو من أساس فلسفى ، وإن بدا الفكر الشرقى القديم فى معظمه خاليا من ذلك الأساس .

وبعد : فهذه محاولة متواضعة ، نعلم أنه يشوبها النقص والقصور ، وتلك سمة العقل الإنسانى ، ونعلم أن امتلاك الحقيقة أمر عسير المنال ، ويكفينا حب الحقيقة والبحث عنها ، وإنه ليسعدنى وأنا أقدم للقارىء هذا الكتاب وهو الثانى ضمن سلسلة الدراسات الكلامية ، أن أكرر ما قلته فى الكتاب الأول من الترحيب بصدر رحب وبصدق بالنقد ، لأن النقد سبيل تلافى النقص والاهتداء إلى الحق ، ورحم الله من قال : « صديقى من أهدى إلى عيوبى » .

والله أسأل أن يلهمنا الصواب والتوفيق والسداد ،

على عبد الفتاح المغربى